اليتيم

(قصـــــة قصيـــــرة)

بقلم/ فاطمة محسن

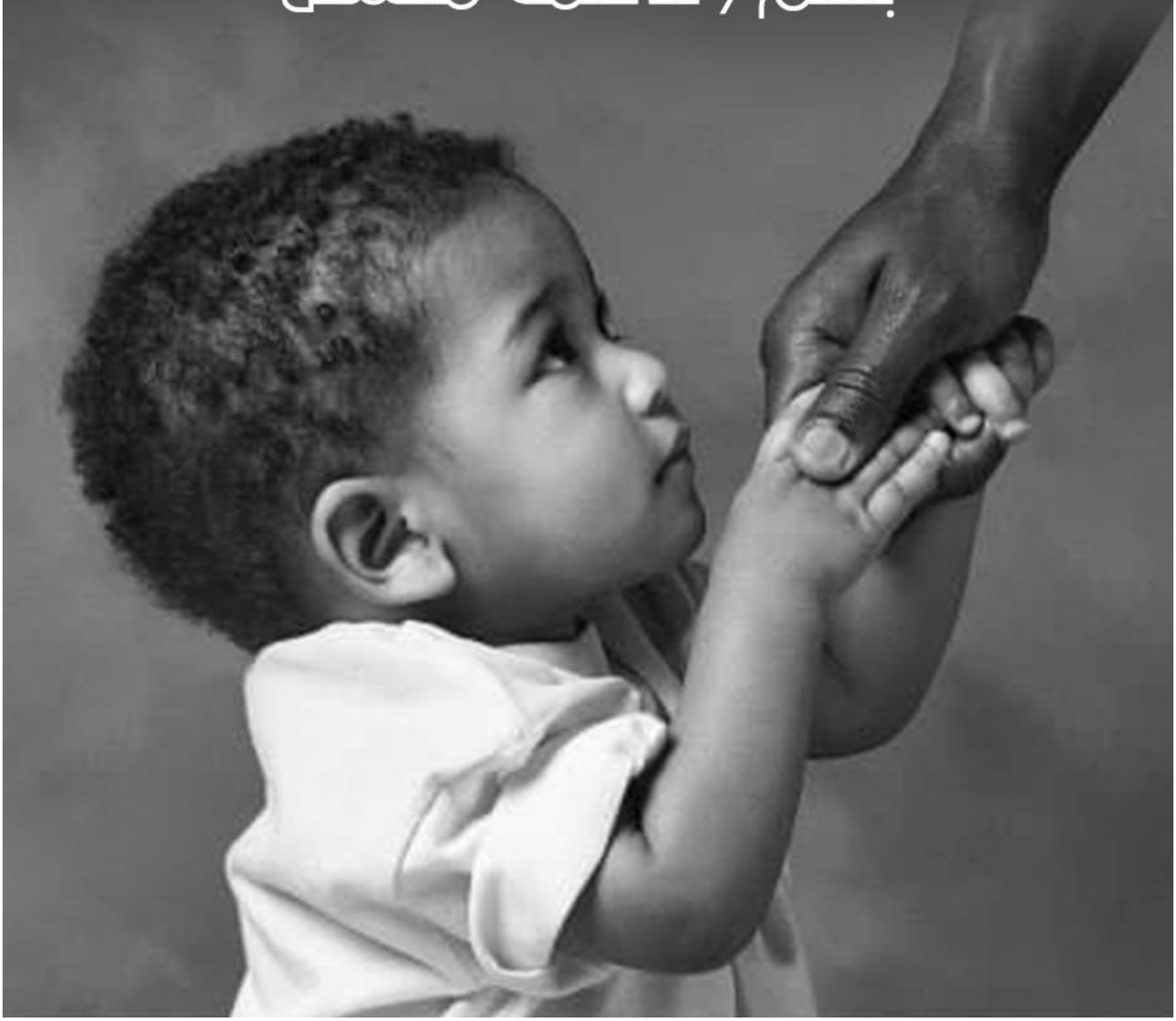

اليتيم

(مستوحاة من قصة حقيقية)

بقلم: فاطمة محسن

"ليس أمامنا خيار آخر سوى أن نتبنى طفلًا"

نطق ذلك الشاب الثلاثيني تلك العبارة في مرارة، فقالت زوجته مستنكرة: نتبنى؟! أنت تعلم أن التبني حرام يا وليد.

أطلق زفرة ملتهبة وقال: أقصد نتكفل بطفل يا إسراء.. لقد خانني التعبير.

تدخلت والدته قائلة في حدة: ماذا تعني بذلك؟

التفت إليها وليد قائلًا: لقد أخبرتك للتو يا أماه، إن أملنا في الإنجاب ضعيف جدًا، بل يكاد يكون معدومًا حتى مع العلاج.

هتفت أمه في عصبية: ولماذا لا تتزوج بامرأة أخرى؟

انكمشت إسراء على نفسها وهي تتابع الحوار الدائر بين زوجها وحماتها في ترقب، في حين قال وليد في عصبية مماثلة: أنتِ تعلمين أنني سبب تلك المشكلة، فلماذا تتعمدين جرح إسراء بمثل هذا الكلام السخيف؟

- هل ستعيش بقية حياتك بدون أطفال؟

- أخبرتكِ أنه يمكننا كفالة طفل من دار الأيتام.

لطمت والدته على وجهها وهي تصرخ: دار الأيتام؟! هل جننت؟ ما أدراك أن ذلك الطفل قد جاء إلى الحياة بصورة شرعية؟

شحب وجه وليد، وقال في ارتباك: لا، لا أظن..

قاطعته والدته صارخة: ما أدراك؟!

تنهد وليد في استسلام وقال: أنتِ محقة يا أمي.

غادرت أمه المكان تاركة وراءها جواً كئيباً ثقيلاً، وساد الصمت بين الزوجين لفترة طويلة، قبل أن تقطعه إسراء بقولها: وليد، لم لا نتكفل حقًا بطفل يتيم؟ ألم يقل الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنا وكافل اليتيم في الجنة؟

أطلق وليد زفرة ملتهبة وقال: لقد فكرت في ذلك حقًا يا إسراء، ولكن كما قالت أمي..

قاطعته إسراء قائلة: وما ذنب ذلك الطفل يا وليد إذا كان والده قد أذنبا حقًا؟ هل من العدل أن يؤخذ طفل بجريرة والديه؟ هل من العدل أن يعيش طوال عمره منبوذًا لشيء لا يد له فيه؟

قال وليد في ارتباك: أنتِ محقة يا إسراء، ولكن..

- ولكن ماذا يا وليد؟ أنت تعلم أنني أحب الأطفال، وأحبك أنت أيضًا، ولا أريد أن أتركك لهذا السبب.

قال وليد في صدمة: تتركيني؟!

- أنت تعلم أنني لن أفعل ذلك يا وليد، ولكن..

ترقرقت عيناها بالدموع، فضمها وليد إليه، وقال بعد برهة: لا بأس يا إسراء، سأحقق لكِ أمنيتك، سنتكفل بطفل يا حبيبتي.

هتفت إسراء في فرح: حقًا؟ حقًا يا وليد؟

أومأ برأسه وقال: أجل، لقد اقتنعت بفكرتك.

لكنه، وفي أعماقه لم يكن مقتنعًا..

لم يكن مقتنعًا أبدًا..

*****

بعد ٣ أشهر..

"أخيرًا أصبحتُ أمًا"

نطقت إسراء تلك العبارة في لهفة وسعادة وهي تضم ذلك الطفل الصغير ذا الستة أشهر إلى صدرها في حنان، قبل أن تلتفت إلى وليد - الذي يقود السيارة ببطء - قائلة: إنك لا تتخيل مدى فرحتي يا وليد، لقد عوضنا الله عن السنوات الخمس التي قضيناها وحدنا دون طفل يؤنسنا.

انعقد حاجبا وليد دون أن يجيب، فتابعت إسراء دون أن تنتبه إلى وجوم زوجها: عندما رأيته لأول مرة شعرت بأنه ابني، راودني شعور جميل لم أشعر به في حياتي.

انتبهت في تلك اللحظة إلى وجوم زوجها، فقالت في حذر: ما بك يا وليد؟

تنهد وليد وقال: يبدو أنكِ نسيتي أن أمي قد قاطعتنا منذ ٣ أشهر كاملة، منذ أن علمت برغبتنا في كفالة طفل.

انعقد حاجبا إسراء بدورها وقالت: لقد حاولنا استرضاءها من دون جدوى، ماذا يمكننا أن نفعل أكثر مما فعلناه بالفعل؟

- المشكلة يا إسراء أنها قد تستمر في مقاطعتنا إلى الأبد، أنتِ تعلمين أن أمي لن تتردد في ذلك.

- لقد أصبح وحيد ابننا الآن يا وليد، وينبغي أن تدرك والدتك هذه الحقيقة، ولو أصرت على مقاطعتنا فلنعتبر ذلك ضريبة ندفعها من أجل سعادتنا بهذا الطفل الجميل.

- تقصدين سعادتك!

قالت إسراء مستنكرة: ماذا تعني؟! ألست سعيدًا بأنك قد أصبحت أبًا؟

- لا تخدعي نفسك يا إسراء، أنتِ تعلمين أنه ليس من صلبنا.

- ماذا تقول؟! وما دمت غير مقتنع بهذا، فلماذا وافقت على كفالته؟

- لقد فعلت ذلك لإرضاءك، وأنتِ تعلمين ذلك جيدًا.

تنهدت إسراء في ضيق وقالت: حسنًا يا وليد، أيًا كانت مشاعرك تجاه وحيد، فأرجو منك أن تعامله بلطف، وألا تشعره أبدًا بيتمه، وتذكر أننا عاهدنا الله بأن نحسن إليه، وأن نتعامل معه كابننا تمامًا.

- لا بأس يا إسراء.

*****

ومضت الأيام والشهور سريعًا، ووحيد يترعرع بسعادة في أحضان تلك الأسرة بعد أن استحوذ على قلوب الجميع، حتى وليد الذي صار شغله الشاغل هو إنهاء عمله سريعًا، والعودة إلى البيت لقضاء بقية اليوم مع ابنه الوحيد كما أصبح يطلق عليه..

لقد أصبح لحياتهما معنىً جديدًا منذ أن انضم إليهما وحيد، بل لقد صارت حياتهما تتمحور حول الطفل الصغير، فإذا ضحك ضحكت لهما الحياة، وإذا بكى أظلمت الدنيا في وجهيهما، وإذا مرض طرقا أبواب الأطباء حتى يُشفى، وازدادت سعادتهما عندما نطق وحيد لأول مرة بكلمتي (بابا و ماما)، وقتها كادا يطيران من الفرح، وانهمرت عليه الهدايا والملابس كما يحدث مع كل جديد في حياته، ولم يعكر عليهما صفو تلك السعادة سوى تمادي والدة وحيد في مقاطعتهما، بل إنها تعمدت الإساءة إلى الطفل الصغير عندما أخذه وليد ذات مرة ليعرفها عليه، وقتها قرر الزوجان أن لا يعرضا ابنهما لذلك الموقف ثانية، وأن يرضيا بنصيبهما من السعادة عند هذا الحد.

ومضت خمس سنوات كاملة على هذا النحو حتى جاء اليوم الذي أيقظت فيه إسراء زوجها وهي تقول في لهجة توحي بخطورة الأمر: وليد.. وليد استيقظ.

فتح وليد عينيه بصعوبة، وقال متثائبًا: ماذا هناك يا إسراء؟

قالت إسراء في سعادة طاغية: بعد أشهر قليلة، ستصير أسرتنا مكونة من أربعة أفراد.

قال وليد في حيرة: ماذا تعنين بذلك؟

صمتت إسراء لحظات، ثم قالت ببطء: أنا.. أنا حامل.

ولم تدري وهي تنطق بتلك العبارة - والأمل والسعادة يغمرانها - أن حياتها ستنقلب رأسًا على عقب بذلك الخبر، وأن أيام السعادة قد ولت بغير رجعة!

*****

"أنا حامل"

لم يُصدق وليد أذنيه وهو يسمع تلك العبارة من فم زوجته، فهب من فراشه وهو يهتف في دهشة: ماذا تقولين؟

ارتمت إسراء بين ذراعيه وهي تقول في سعادة: كما سمعت يا وليد.. لقد تحققت المعجزة أخيرًا بعد ١٠ سنوات كاملة.

أبعدها وليد عنه بانفعال وهو يقول: إسراء، كفاكِ مزاحًا.

أخرجت جهاز اختبار الحمل من جيبها وهي تقول: وهل يمزح هذا الجهاز أيضًا؟!

ولم يكن هناك مجال للشك، فزوجته بالفعل تحمل جنينًا في أحشائها..

ذلك الجنين الذي انتظراه سنوات طويلة، حتى غلبهما اليأس أخيرًا، فقررا كفالة طفل من دار الأيتام ليعوضهما عما فقداه.

احتضن وليد زوجته قائلًا في سعادة: حمدًا لله.. حمدًا لله.

سالت دموع الفرح من عيني إسراء وهي تقول: سأصير أمًا لطفلين، هل تصدق هذا يا وليد؟

أبعدها وليد عنه وقد بدا عليه الوجوم، فقالت إسراء في حيرة: ماذا هناك؟

حاول وليد أن يبتسم وهو يقول: لا، لا شيء.

همت إسراء بقول شيء ما، عندما دخل وحيد إلى الغرفة وقال: ماما.. أنـ..

قاطعه وليد صائحًا في عصبية: أخبرتك من قبل أن تطرق الباب قبل أن تدخل.

تراجع الطفل في خوف وقال: لقد نسيت يا بابا.

صُدمت إسراء من انفعال زوجها على وحيد، فقد كانت تلك أول مرة تراه فيها يُعنف وحيدًا على هذا النحو، فقالت في توتر: وليد.. ماذا أصابك؟ كيف تصرخ عليه هكذا؟

هتف في غضب: اصمتي.. دلالكِ الزائد هذا أفسده.

تطلعت إليه في دهشة لبضع ثوانٍ، قبل أن تلتفت إلى وحيد وتقول في حنان: لا تحزن يا وحيد، لقد استيقظ بابا من النوم لتوه، لذلك فهو..

قاطعها وليد قائلًا في عصبية: تحدثي معه خارجًا.

انعقد حاجبا إسراء في ضيق، وهمت بالرد عليه، لولا أنها خشيت من تفاقم الأمر أو إفساد الخبر السعيد، فأخذت بيد وحيد، وخرجت من الغرفة، عندما راح الطفل يبكي، فضمته إسراء إلى صدرها في حنان وقالت: لا تبكِ يا وحيد، لا تبكِ يا حبيبي، لم يقصد والدك هذا.

قال وحيد من بين دموعه: لكنه.. لكنه غاضب مني.

- لا تحزن يا حبيبي، سيصالحك أبوك بعد قليل.

ثم حملته على كتفها وقالت: وحيد، لدي خبر جميل لك.

مسح وحيد دموعه، وقال في لهفة: هل ستشتري لي لعبة جديدة؟

ضحكت إسراء وقالت: هذا أكيد، لكن هناك خبر أجمل.. سيكون لديك أخ قريبًا.

- حقًا يا ماما؟ وهل سيلعب معي؟

- بالتأكيد، ستلعبان معًا وتأكلان معًا، وتقضيان كل حياتكما معًا.

أخذا يتحدثان عن الأمر بسعادة، دون أن يتخيلا أن المستقبل سيحمل لهما مفاجأة قاسية.

*****

"ماذا تريد؟"

صرخت والدة وليد بتلك العبارة في وجه ابنها الذي قال في عصبية: إنني أحمل إليكِ خبرًا سعيدًا هذه المرة.

كان وليد يحاول دائمًا استرضاء والدته طوال تلك السنوات الخمس من دون جدوى، حتى جاء خبر حمل إسراء ليحاول مجددًا إعادة المياه إلى مجاريها بينه وبين والدته، إلا أنها دفعت الباب في وجه ابنها وهي تقول: لا أريد أن أعرف عنكم شيئًا.

أسرع يمسك بالباب قبل أن تغلقه قائلًا: انتظري يا أمي، ما أردت قوله هو أن إسراء حامل.

اتسعت عينا والدته في دهشة، وصمتت بضع لحظات، قبل أن تعاود فتح الباب قائلة: وماذا عن الطفل الذي تكفلت به من دار الأيتام؟

قال وليد في عصبية: أنتِ تعلمين السبب الذي دفعني لذلك.

قالت في سخرية: بالتأكيد، أردت أن تنصاع لزوجتك على حساب والدتك.

- ليس الأمر كذلك يا أماه، أنتِ تعلمين أنني السبب في حرمانها من الإنجاب، لذا قبلت بذلك الاقتراح، رغم عدم اقتناعي به.

صمتت والدته بضع لحظات قبل أن تقول: والآن وبعد أن حملت إسراء، ماذا ستفعل بذلك الطفل؟

تساءل وليد في حيرة: ماذا أفعل به؟! ماذا تعنين؟

- لم يعد هناك سبب لوجوده، لذا فلترجعه إلى دار الأيتام.

غمغم وليد في ذهول: أرجعه إلى دار الأيتام!

- بالتأكيد، كيف تسمح له بأن يشارك ابنك طعامه وشرابه وماله، بل وربما ميراثه - بعد عمر مديد - ؟.. ابنك أحق بمالك يا وليد.

- المال ليس مشكلة بالنسبة لي، وأنتِ تعلمين ذلك جيدًا.

بدا الضيق على وجه الأم، وصمتت مفكرة لحظات، قبل أن تقول في دهاء متعمدة استفزازه: وماذا سيكون موقف ابنك من أخيه المزعوم هذا؟ كيف سيقدمه للناس؟ هل سيقول لهم إن والده كان عاجزًا عن الإنجاب طوال ١٠ سنوات كاملة، حتى اضطر إلى كفالة طفل من دار الأيتام؟!

احتقن وجه وليد بشدة وهتف في غضب: يكفي يا أمي.

تابعت متجاهلة كلامه: فكر في مستقبل ابنك يا وليد، أنت ستظلمه ظلمًا رهيبًا لو أبقيت على ذلك الطفل.

صمت وليد مفكرًا، قبل أن يقول في حزم: أنتِ محقة يا أمي.. لابد من إعادة وحيد إلى دار الأيتام.

*****

"ماذا تقول؟! تريد أن ترد وحيدًا إلى دار الأيتام؟!"

صرخت إسراء بتلك العبارة في وجه زوجها الذي قال في عصبية: اخفضي صوتك يا إسراء، أنتِ تعلمين أنني أكره الصوت العالي.

بذلت مجهودًا كبيرًا لتسيطر على أعصابها، قبل أن تقول: وليد، أنت تمزح، أليس كذلك؟

قال وليد في حزم: لا، إنه ليس مزاحًا يا إسراء، إننا في انتظار طفل من صلبنا، فلماذا نبقي على ذلك الطفل؟

عادت إسراء إلى عصبيتها وهي تقول في استنكار: لماذا نُبقي عليه؟! ما هذا الكلام الذي تقوله؟! إنك تتحدث عنه وكأنه حيوان أليف، استمتعت به لفترة، فإذا مللت منه أعدته إلى الشارع، بل إن قلبك لن يطاوعك على فعل ذلك بالنسبة لحيوان.. فما بالك بإنسان؟!

ذلك الطفل الصغير الذي لم يعرف في الحياة أبًا وأمًا سوانا، ألا يكفيه أنه فقد والدته عند ولادته وقبلها فقد أباه؟ كيف تريد أن تذيقه طعم اليتم مرة أخرى بمثل تلك القسوة؟!

ثم إن ذلك الجنين الذي تتحجج به، والذي لم يأتي إلى الحياة بعد، هل سألت نفسك كيف حدث هذا الحمل بعد ١٠ سنوات كاملة من الحرمان؟ ألم تفكر بأن الله قد رزقنا إياه، لأننا تكفلنا بذلك الطفل اليتيم؟ أيكون شكرك على نعمة الله عليك هو قهر ذلك اليتيم المسكين؟ أنسيت أن الله - سبحانه - قال: "ولسوف يعطيك ربك فترضى"؟ حتى إنه ربط ذلك الأمر بقوله: "وأما اليتيم فلا تقهر".. أنـ..

قاطعها وليد قائلًا في تهكم: يا للسخرية! منذ متى أصبحتِ واعظة؟!

احتقن وجه إسراء وهي تقول: أهذا هو ردك على حجتي؟ ما حجتك أنت أمام الله، عندما يسألك عن تلك المسئولية التي تحملتها بنفسك؟

قال وليد في عصبية: لقد فعلت ذلك لأجل إرضاءك، أما الآن فقد اختلف الوضع، ابننا أحق بمالنا.. لا يمكنني الإنفاق على طفلين في آن واحد.

قالت إسراء في سخرية عصبية: لا يمكنك ماذا؟ أتخدع نفسك أم تخدعني يا وليد؟ إن دخلك الشهري يكفي لإعالة أسرة مكونة من ١٠ أفراد.. من الأفضل أن تبحث عن حجة أخرى غير هذه الحجج الواهية.

احتقن وجه وليد، وقال في غضب: إنه قرار نهائي يا إسراء، لقد وافقتك على هذا الأمر من قبل، وغضبت أمي عليّ بسببك، أما الآن فأنا من سأتخذ القرار في هذا الشأن.

صاحت إسراء في عصبية: إنه ليس قرارك وحدك، لقد اتخذنا هذا القرار معًا.. ثم أي قرار هذا الذي تتحدث عنه؟ إنه ابني ولن أتخلى عنه أبدًا، حتى لو انفصلت عنك في سبيل ذلك.

دُفع الباب في تلك اللحظة، ودخل وحيد ليرتمي بين ذراعي إسراء هاتفًا في ذعر: ماما.. ماما.. لماذا تصرخين؟

ضمته إسراء إلى صدرها في حنان وقالت: لا تخف يا حبيبي، لقد كنت أناقش بابا في موضوع.

ثم رفعت عينيها إلى وليد، وقالت في حزم: آمل ألا تفتح هذا الموضوع مرة أخرى.

قالتها وخرجت من الغرفة مطمئنة بأن الأمر انتهى عند هذا الحد، دون أن تعلم أن وليد يضمر في نفسه أمرًا آخر.

*****

مضت عدة أيام على ذلك الحوار العاصف، ساد خلالها البيت هدوء متوتر، حتى جاء ذلك اليوم الذي عاد فيه وليد من عمله، عندما قالت له إسراء: وليد مهلًا، لا تغير ملابسك، فأنا أريد أن أذهب الآن إلى المعمل لإجراء بعض التحاليل.

نزع وليد سترته وقال: لا، أنا مرهق.. اذهبي وحدك.

- حسنًا إذًا، سآخذ وحيدًا معي.

التفت إليها وليد، وهو يهتف في انفعال: كلا.

قالت إسراء في حيرة: لماذا؟

حاول وليد أن يبتسم وهو يقول: أعني.. لقد عدت من العمل لتوي، وأنا أريد أن أقضي بعض الوقت معه.

قالت إسراء في سعادة: كنت أعلم أنك طيب القلب يا وليد، كنت أعلم أنه من المستحيل أن تقدم على أمرٍ قاسٍ كهذا.

ثم طبعت قبلة على وجنته وقالت: فليصرف الله عنا ذلك الشيطان الذي يريد إفساد ذات بيننا.

راقبها وليد حتى غادرت البيت، ثم اتصل بأمه وقال: أمي، لقد غادرت إسراء.. أجل، إنها فرصتنا، سننفذ ما اتفقنا عليه الآن.

*****

"تريدون أن ترجعوا وحيدًا إلى دار الأيتام؟!"

نطقت مديرة دار الأيتام تلك العبارة بصدمة وهي تتطلع إلى وليد ووالدته، فقال وليد في حزم: هذا صحيح.

صمتت المديرة لحظات محاولة استيعاب الأمر، قبل أن تقول في حذر وهي تتطلع إلى الطفل الصغير الذي يلهو في الأرجاء: أرجو المعذرة يا سيدي، ما سبب هذا القرار الغريب؟ لقد اعتنيتم بوحيد ٥ سنوات كاملة، فلماذا الآن؟

- لأن زوجتي قد حملت بالفعل، لقد انتفى الغرض من وجوده.

انفعلت المديرة قائلة: انتفى الغرض من وجوده؟! ما هذا الذي تقوله يا سيدي؟! كيف تنظر إلى ذلك الطفل بالضبط؟ هل تظن أنه لعبة أخذتموها للعب دور الأب والأم، وعندما أكرمكما الله بالحمل، ترجعان الطفل إلى دار الأيتام؟!

ألم تفكر في مشاعر ذلك الطفل الصغير وهو يرى أسرته - التي لا يعرف سواها - تتخلى عنه لسبب لا يعرفه؟ هل فكرت كيف سيقضي أيامه في هذا المكان الغريب؟ ألم تفكر بأن ذلك اليتيم هو سبب ذلك الرزق الذي ساقه الله إليكم؟ ألا تخشى بأن يعاقبكم الله ويسلب منكم نعمته تلك، ويذيقكم من نفس الكأس الذي تريدون أن تذيقوه لذلك الطفل المسكين؟

صاحت والدة وليد في غضب: بعدًا للشر! كيف تتجرأين على قول مثل هذا الكلام؟! ومن أنتِ حتى تحاسبينا أو تراجعينا في قراراتنا؟.. يمكنك رفض استلام الطفل، لكن في هذه الحالة، سنتركه في الشارع وليحدث له ما يحدث.

اتسعت عينا المديرة في جزع، وهي تسمع الجملة الأخيرة التي قالتها والدة وليد، وصمتت لحظات لتستجمع شتات نفسها، قبل أن تقول في حزم: لا بأس، ما دام هذا قراركم.

*****

همّ وليد بالخروج من البوابة مع والدته تاركين وحيد وراءهم، عندما هرع الطفل نحوه وقال: هل سنذهب لشراء لعبة الآن يا بابا كما وعدتني؟

تجاهله وليد وهو يعبر البوابة، عندما أمسك وحيد ببنطاله ليوقفه وهو يقول: بابا!

أبعده وليد عنه وهو يقول في ضيق: ابقى هنا يا وحيد.

حملت المديرة وحيد واستدارت لتعود به إلى المبنى، عندما صرخ وحيد: بابا، إلى أين أنت ذاهب؟ بابا، خذني معك.. بابا.. بابا.

قالها وهو يضرب المديرة بيديها الصغيرتين ويصرخ باكيًا: اتركيني، اتركيني أذهب مع بابا.

لم تستطع المديرة الاحتمال أكثر من ذلك، فتركته لينزل ويلحق بأبيه، عندما فوجئت بوالدة وليد تدفع الطفل الصغير بقسوة ليسقط أرضًا، فهرعت المديرة نحو الطفل الذي أخذ في الصراخ وهي تقول في غضب هادر: ماذا فعلتي أيتها الحقيرة؟

ثم ضمت وحيد إليها في حنان، ورفعت عينيها إلى المرأة قائلة: ثقي أن الله سينتقم منكِ لقهركِ لطفل يتيم على هذا النحو.

أمسك وليد بذراع والدته، وقال في توتر: أمي، فلنذهب.

قالها وخرج من البوابة، فصرخ وحيد وهو يحاول التملص من بين يدي المديرة: بابا.. بابا.. انتظر.

وهزت صرخاته أرجاء المكان، ولكن..

لا حياة لمن تنادي.

*****

فتحت إسراء باب المنزل، ودلفت إلى الداخل وهي تتلفت حولها في حيرة، قبل أن تهتف: وحيد.. وحيد.

خرج وليد من غرفة النوم، وقال لإسراء في برود: هل عدتِ؟

التفتت إليه قائلة في توتر: أين وحيد؟ إنه دائمًا ما يهرع إلى الباب حالما يسمع صوت المفتاح.

أشاح بوجهه بعيدًا دون أن يجيب، فتابعت إسراء في جزع: أين وحيد يا وليد؟

- إنه ليس هنا.

- ماذا تعني بذلك؟

صمت وليد لحظات، قبل أن يقول في حذر: لقد أعدته إلى دار الأيتام.

اتسعت عينا إسراء في ارتياع، وقالت في جزع: أعدته إلى دار الأيتام!

ثم صرخت في غضب هادر: كيف؟ كيف فعلت ذلك؟ كيف غدرت بي بمثل تلك الطريقة؟ لقد تركت الطفل أمانة في يديك حتى أعود، وأنا مطمئنة بأنك قد تراجعت عن الفكرة، فكيف..؟

قاطعها وليد قائلًا في عصبية: لقد كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة التي يمكنني بها إرجاع وحيد إلى الدار، وسط عنادك وإصرارك على تفاقم الأمر.. لقد انتهى الأمر يا إسراء، ولا فائدة من الكلام فيه.

هتفت إسراء في استنكار: انتهى الأمر؟! لا يا وليد، لن ينتهي الأمر أبدًا، ولن أتراجع عن كلامي في هذا الشأن، سأرجع وحيدًا إلى البيت الآن، وإلا فالانفصال.

قالتها وهي تفتح الباب، وتهبط السلم مسرعة، فلحق بها وليد وهو يقول في غضب: ومن سيسمح لكِ بذلك؟

أمسك بها في تلك اللحظة، فحاولت التملص منه وهي تهتف: اتركني.. اتركني أستعيد ابني.. اتركني.

زلت قدم وليد مع محاولة إسراء الإفلات منه، فاندفع إلى الأمام، ليرتطم بإسراء التي وجدت جسدها يندفع في الفراغ، فحاولت التمسك بالدرابزين كما فعل وليد، لكن جسدها تدحرج بسرعة قاسية عبر السلالم، لترتفع صرخاتها مدوية حتى ارتطمت أرضًا في عنف.

*****

"فقدت الجنين؟!"

غمغم وحيد بتلك الكلمة في ذهول، وهو يستمع إلى الطبيب الذي تابع: يؤسفني أن أقول ذلك يا أستاذ وليد، لكن هذا ما حدث.

شعر وليد بأن قدميه لا تحملانه، فجلس على أقرب كرسيٍ إليه صامتًا بضع لحظات، قبل أن يرفع عينيه قائلًا للطبيب في مرارة: لقد انتظرنا ذلك الجنين سنوات طويلة، فكيف يمكننا أن تخسره بمثل تلك السهولة؟ بل كيف يمكننا أن نعوضه وقد حدث الأمر بمعجزة أصلًا؟

هز الطبيب رأسه بأسف وقال: إنها إرادة الله يا أستاذ وليد ولا راد لقضائه، ومن حسن الحظ أنك لم تفقد زوجتك أيضًا، فقد أصيبت بنزيف حاد وإصابات متعددة جراء السقوط، لكنها ستكون بخير قريبًا.. اطمئن.

- كيف حالها الآن؟

- لقد أفاقت منذ قليل، ولكنها تبكي طوال الوقت، لا شك أن فقدها لجنينها كان أمرًا صادمًا بالنسبة إليها.

صمت وليد دون أن يجيب، فقد كان يعلم السبب الحقيقي وراء بكاء زوجته، وانتابه شعور هائل بالذنب، فقال للطبيب: هل يمكنني رؤيتها؟

- أعتقد أن وجودك بجوارها في هذه المحنة سيفيدها كثيرًا، لكن لا تحاول الإثقال عليها، فهي في حالة سيئة.

فتح وليد الباب، ودخل على زوجته بتردد وقال: إسراء.

رفعت إسراء عينيها إليه في مرارة، وقالت في ضعف واضح: اخرج من هنا، لا أريد رؤية وجهك.

جلس بجوارها وقال في أسى: إسراء، أنا آسف، أعترف بأنني أخطأت في حقك كثيرًا، وكنت السبب في فقدك لجنيننا.

- لقد كان ذلك امتحانًا من الله لنا يا وليد، لكنك سقطت فيه بسهولة، لقد أخبرتك بأن ذلك الجنين قد أكرمنا الله به مكافأة لنا على كفالتنا لذلك الطفل اليتيم، أما الآن وقد كفرتَ بنعمة الله، فكان هذا جزاءً وفاقًا على ما اقترفته يداك.

صمتت لحظات ملتقطة أنفاسها، قبل أن تتابع: من الغريب أن عقاب الله لم يتأخر كثيرًا، لقد أذاقك الله في نفس اليوم مرارة الفقد والحرمان، كما أذقتها لذلك الطفل اليتيم، ولا عجب، فالله - تعالى - يقول: "ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به

وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون"

أما أنا فعزائي الوحيد أنني عارضت ذلك، ووقفت في وجهك، وكنت صادقة في تنفيذ العهد الذي قطعته مع الله عندما تكفلنا بذلك الطفل اليتيم ولكن..

بكت في تلك اللحظة وهي تقول: ولكنني فقدت الطفلين معًا.

وتابعت في غضب مرير: وكل هذا بسببك.

ربت وليد على كتفها، وقال في خفوت: سأكَفّر عن ذنبي يا إسراء، سأعيد وحيدًا إلى البيت، وسنبدأ معًا صفحة جديدة.

أزاحت يده بعيدًا عنها وهي تقول في سخرية مريرة: تعيده إلى البيت؟! وهل تعتقد أنهم سيسمحون لك بذلك؟

تنهد وليد وقال: فلنحاول على الأقل.

*****

"تريد أن تستعيد وحيدًا؟!"

نطقت مديرة دار الأيتام تلك العبارة في برود وهي تتطلع إلى وليد الذي قال: هذا صحيح، لقد فقدنا الجنين، لذا..

قاطعته المديرة قائلة: أرجو المعذرة يا سيدي، الطفل ليس لعبة تشبعان بها غريزة الأبوة والأمومة لديكما، وليس مجرد بديل حتى يرزقكما الله بطفل من صلبكما.

- هذا لن يتكرر مرة أخرى، حتى لو رزقنا الله بطفل جديد، ويمكنني أن أكتب إقرارًا بذلك.

- أعتذر لك مرة أخرى يا سيدي، ولكنكم لستم أهلًا لتحمل تلك المسئولية، ولا يمكن أن نأتمنكم أبدًا على وحيد.. ما أدرانا بأنك لن تهدد بترك الطفل في الشارع، كما قالت والدتك؟ والدتك التي دفعت الطفل بقسوة أمامك دون أن تحاول حتى الدفاع عنه، فكيف نأمنكم على ذلك الطفل الصغير مرة أخرى؟.. يبدو أنك لا تعرف معنى الأسرة بالنسبة للأبناء يا سيدي، الأسرة هي الأمان، والدفء، والسند، والحب بدون شروط، والملجأ، والملاذ الذي يهرعون إليه فرارًا من قسوة العالم في الخارج، باختصار هي الحياة بالنسبة لهم، ووحيد لن يجد تلك المعاني الجميلة في أسرتكم التي لم تتردد لحظة واحدة في إرجاعه إلى دار الأيتام، عندما انتفى الغرض من وجوده كما قلتَ من قبل.

حاول وليد كثيرًا إثناء المديرة عن قرارها لكن دون جدوى، حتى ختمت المديرة كلامها قائلة: إن سمحت لك بأخذ وحيد، فهذا ظلم ثالث للطفل الصغير، وهو ما لن أقبله أبدًا.

خرج وليد من مكتب المديرة يائسًا، فهزت السكرتيرة - التي كانت تتابع الحوار - رأسها بأسى وقالت: هل أنتِ واثقة من هذا يا سيدتي؟ أعني أن الطفل الصغير بحاجة حقًا إلى والديه، فلماذا لا تعطيهما فرصة أخرى لتصحيح خطأهما؟

هزت المديرة رأسها بأسى وقالت: صدقيني يا منال بودي حقًا أن أفعل ذلك، خاصة وأن الطفل لم يتوقف عن البكاء منذ ذلك اليوم، ولكن هل تعتقدين أن هذا هو القرار الصائب مع مثل تلك الأسرة؟

وبقي سؤالها دون جواب.

تمت بحمد الله